



مكان التصوير: الهرمل-العاصي

## عقب الماضي

ما أجمل تلك الأماكن التي نقبنا فيها ذكريات كانت قد لونت وزخرفت ماضينا ، حيث أننا اعتدنا ان نقضي معظم أوقاتنا هناك ، هناك؟ نعم ، في تلك الحديقة ، حديقة تقع في وسط بيروت الأبية ، اعتدنا ان نقصدها انا والعائلة ليجتمع شملنا، ولنخزن ذكرياتنا في احضان جذوع أغصانها. بين حين وحين كنا نبتكر بعض الألعاب كي لا نشعر بالملل . أعلم انك تفكر الآن بمظهر الحديقة وجوفها ، ومع ذلك يبقى الوصف أحرص في حضرة جمالها ورونقها ، فيا عين تنزهي ، وأغرفي من معين السحر . فأى غطاء رائع تذررت به السهول؟! غطاء تجمهرت الألوان فيه فتتنافس الأحمر ، والأصفر ، والأزرق ، فالبنفسجي ، حتى شكلت مدرجات احتضنت رونق جمالها وآيات سحرها. فما بالك والأخضر الزاهي يعترى أشجارها الشامخة ، وارفة الظلال ، اه ولو تنظر الى تلك السماء الصافية التي عندما يسفر الصباح بنوره الياسم ترانا نهول اليها لنستنشق عقب نداها ولنطرب أذاننا بزقزقة الطيور التي تكاد تمزق صمت الجو الأخرس وتصدح بنغماتها العذبة النقية فتضيف للحياة سمفونية السرور والبهجة . سبحان الخالق ! فقد ابدع وصور . ما هو سر هذه الحديقة؟ فهي ملكة تربعت على عرشها وتميزت عن باقي الحدائق . يا إلهي! لماذا أسأل وأتعجب وهي من تسمى "فيروزة الذكريات"؟! الآن عرفت لماذا دعوها بذلك ، هي عالم الروايات والحكايات ... يدخلها من خيم الحزن على قلبه حتى تداوي جروحه وتؤنسه ، وتستعيد لمعة ذكرياته التي تغبرت مع مرور الزمن، فهي صديقة الدرب والمأوى الوحيد.

كنت أقصدها كل يوم، فمن يستطيع ان يضاهي جمالها؟ وفي أحد الأيام وبينما أتمشى في ضواحي الحديقة وأتأمل جمالها الخاطف للأبصار، لفت انتباهي فتاة في نفس عمري، فوجدتها تراقبني بدهشة، إلا أن شعرت بالخوف وأسرت لتجلس بعيدة عني، ما أمر تلك الفتاة يا ترى؟ سارعت إليها قبل ان أفقدها، نظرت اليها ورددت في نفسي "ما أقيح الفقر وما أجمل الفقراء". من الناس من حرمهم الدهر المتعة بالحياة فهم يهيمنون على وجه الأرض والبؤس حليفهم والتعاسة ظلمهم. لقبيتها مسكينة لقد كانت في حالة يرثى لها، توفي والديها ولم يتركها لها سوى دموع الأسى وذل اليتيم... كانت حافية القدمين رثة الثوب، ما تحصي العين تلك الرفق المتناثرة فيه فكأنها ارقام تعد بها ليالي

عذابها. بهت لون شعرها الفاحم وتلبد ولاح من تحته وجه كالدينار الزائف من صفرته، هي فتاة علية قد أخذ السقم من حجمها... سألتها عن اسمها فقالت لي بصوت يحتوي على رعشة : قمر، اسم على مسمى! ، في ذلك الوقت تنكرت كلام امي عن مساعدة الفقراء، حتى قررت ان نصبح اصدقاء فلربما ينتعش قلبها بعد عناء داكن هيمنة عليها، فابتسمت ابتسامة رقيقة توحى مدى حزنها. حدثتني عن ماضيها فأصغيت لكلامها، ثم ارشدتني الى منزلها، منزل داخل الحديقة على أحد المقاعد، اعتذرت بسبب الفوضى وفي ذلك الحين أشكر الله على ما أملك. اعتدت القوم كل يوم وبنشاط أكثر من ذي قبل، حيث أحمل ما لذ وطاب من المأكولات التي ستفتح شهيتها، وبين حين وآخر كانت تزور منزلي ، واعتبرتها امي كابنتها الثانية واهتمت بها اهتمام الغني بابنه... وفي أحد الأيام، ذهبت لأفاجأ قمر بهدية كنا قد تعبنا انا وامي في تحضيرها، فأصدم بعدم وجود أثر لها، فرحت أفتش بين ربوع الحديقة باحثة عنها. ما هذا الضوء المنبثق؟ دخلت فيه ووجدت نفسي في ممر مضيء ينتهي به المطاف عند نهاية هذا الممر. بالطبع، دخلت ووجدت امامي نافورة خلف سياج ذهبي، فتقدمت خطوة للأمام، ما أبهاها! ولكن ما هذا؟ كتاب؟ تمهلت بفتحه كي لا يتفتت، قرأته رويدا رويدا، في البداية لم أفهم ولكنني بعد لحظات اكتشفت بأن الكتاب تابع لشخصية قديمة! أيعقل هذا؟ يتحدث الكتاب عن هذه النافورة وكيف عاش طيلة حياته بجوارها، أظن أنه فقير أيضا، كقمر، أوه نسيت أمر قمر وضربت على رأسي ، مهلا يوجد ورقة في الخلف "لقد سررت بمعرفتك، وانك كنت كأخت لي ولكنني عليّ الذهاب فلربما استطيع بناء نفسي، أرسل لك هذا الكتاب التابع لوالدي منذ صغره تعني في القراءة كي تعرفي كل التفاصيل، أمل أن تجدي هذا المكان فهو بمثابة منزلي حيث أحتمي من العالم بالخارج، صديقك قمر..." انهمرت الدموع من عيني وجلست انظر الى تلك العملات في النافورة كأنها قطع من الذهب، لها سر عظيم، حلم كل شخص مدفون في القاع. سأرمي واحدة "اتمنى ان أرى قمر". ها انا قد حدثتكم عن الماضي وأمل ان نغدو بمستقبل زاهي، واتمنى ان الحديقة ستدوم رغم الفراق...

وبعد عدة سنين، ها انا قد عدت ، وإني على يقين بأنها لا زالت كما هي ، ملكة تتباهى بجمالها وتزتهي برونقها، شامخة كالأرز ،كنت أرسم في مخيلتي شكلها الفاتن والجداب، فإنني على ثقة انها ما زالت بانتظاري، ولربما تكون حزينه بسبب بعد السنين وطولها لكنها عند رؤيتي سوف يطير قلبها فرحا وازدهارا، وستعلو اجواء البهجة. ولكن كل هذا قد حطم وتكسر الى قطع قد شقت قلبي فالغير متوقع قد حصل ، ولأول نظرة بعد غياب طويل كانت قد مزقت قلبي اربا ، سوداء فاحمة اللون ، اوراقها الذابلة المتناثرة على بساطها البني ، لم اصدق ما رأته عيناى ، ثم تراءت الأسئلة على مخيلتي ، هل نحن السبب ؟ من أهملها؟ ولماذا!!! هي لا تستحق هذا . وانهمرت الدموع من عيني المتألمتين ، وعجز لساني عن الاعتذار لها. خطوت خطوة للأمام وشعرت بضوء لمع أمامي حيث أعاد شريط ذكرياتي بداخلها ، وجدت نفسي ألعب بين ربوعها ، وتعلو صيحاتنا ، وسمعت أصوات الفرح التي انعشت قلوبنا آنذاك . عدت الى الواقع، ووجدت قلبها هائم مستاء، فتجرات وتجاسرت ، وهممت في أنها التي عندما لامس صوتي قلبها شعرت وكان سلاسل البؤس التي انقضت عليها وحبستها طيل تلك السنين قد أزيلت . من أتلفك يا فيروزتي؟ أبت أن نلومنا ، فسكتت ، ثم أعدت طرح سؤالى إلا أن بدأت بحكايتها "أعلم يا عزيزتي أنك مستاءة على حالتى لكن اريدك ان تعلمى اننى مسامحة لكم فكما يقولون المسامح كريم"، غدى كل واحد في طريقه ولم تنظروا إلي حتى ،فكنت على يقين انكم في يوم من الأيام ستعاودون المجيئ . أعلم صعوبة المرافقة ، فظالما زارني من انتقل الى هذه المرحلة من عمره ، مرت سنة ، سنتين ...ثلاث وأكثر ، وها أنا فقدت الأمل وبدأ الناس بمعائيتي لأن السرور الذي ملأ قلبي قد توارى . شعرت وكأنني السبب في كل هذا وأهملت نفسي ، وبدأ الناس يتجاهلونى ويشتمونى ، وسقطت على الأرض فتناثرت وغرقت أمالى ، وبدوت كقطعة فحم سوداء لا أعرف مصيري . شاهدت وقع الأقدام بجانبى ، ولأول مرة أشهد شر معظم البشر ، فقد كنت جاهلة عن المجتمع بالخارج . فقاطعتها نموعي ونظرت من حولها ووجدت الأوساخ ، أغصانها المكسورة ...بنس هذا الإنساننن ! هل تربى قط ؟ حضنتها وجوفى محطم وتوسلت ثم اعتذرت . وعدتها بأن القادم أجمل وأننى سأسعى وأبذل قصارى جهدي لتومضي من جديد ، وستكونين مراد الجيل القادم .فيا فيروزتي أسفري بنورك الذهبي ، والبسي تاجك المرصع بالجواهر ليعكس بريقه في ربوعك ،لنتعش طبيعتك وتستعيد حياتها .

بعد شهرين ونيف ، غدت الحديقة كجنة تجعل المتأمل يغوص في أعماقها ، وكأنها لوحة فائقة خطها رسام ، في ثغرها بسمه وفي وجهها إشراقة حيث الحقول احتضنت أشعة الشمس فإذا هي صفراء تحاكي الذهب لونا والأشجار المتهدلة مزدانة بالثمار وكأنها فوانيس أوقدت في إحدى المناسبات والأزهار الجميلة تنتشر على البساط السنديسي الأخضر فتزيد جمال المنظر روعة وبهاء...انا وفيت بو عدي وها انت اجمل من ذي قبل ، وقيل رحيلي اطلب منك طلبا صغيرا-ما هو ؟- اعنتي بالأجيال وارشدتهم الى الطريق الصحيح فلربما يخلص هذا العالم من شر كان قد

اكتحل مجتمعنا وسيطر عليه . يا اهل بلادي ،كيف لكم ان تخونوا هذه الأراضي التي أعطتكم جمالاً و مظاهر خلافة؟فاتركوا اغلال الشر المكبلة بكم ، و لتتحد لنبني مجتمعاً مزدهراً. واتمنى ان تبقي كما انت ، والى لقاء قريب...

قريب؟ إلى أي مدى؟ فقد انتهى وقتي...

جدتي جدتي، نعم يا أباي، هل سمعتي الأخبار؟ كلا، ماذا يحدث، أتذكرين فيروزة الذكريات؟ نعم بالطبع، سوف يحولونها الى مصنع، اعتقد للأقمشة لا أنكر ماذا قالوا . شعرت وكأن صعقة قد أصابتني ، بدأت أحمق في المكان وأنا أشهق من شدة الخوف والرعب الذي تملكني. صرت في نروة خوفي وقد تجمد الدم في شراييني وازدادت دقات قلبي تعاضما وارتفاعا حتى أحسست به يكاد يخرج من بين ضلوعي. هل ذهب تعب كل تلك السنين سدا؟ ما كان بيدي حيلة، فقد غدوت عجوزا حفرت السنين على محياي، وما كان لي ان أفعل هو دعوة الله لحفظها، فأنت لا تعلم ما معنى أن يعاقب المرء نفسه بترك ما يجب. حشد صغير اجتمعوا لمنع هذه المهزلة ، ويرددون بكل ما أوتوا من قوة "على الطبيعة أن لا تقتل" . ها أنا أشاهد تحركاتهم وأرى فيروزتي مطأطأة الرأس ويبدو عليها انها قد فقدت تلك الثقة ، ثقة أعدت بناءها رغم كل المصاعب التي مرت بها ، والآن ستهدم بهذه السهولة؟! أعلم أن عمرها قد انتهى وهي على وشك الموت، ولكن أليس من واجبا ان نحميها ونرعاهها؟ وبالرغم من أنها مخفية عن الأنظار ألا يعتني بها الزوار؟ شعرت بألم اقتبسني، فرحت لشم عبق هوائها، عبق الماضي، ولآخر مرة. ولوهلة كدت ان أنسى النافورة! فذهبت للإطمأن، وإذ بي أرى عجوز ينهمر البريق من عينيها وكأنها خسرت شيء، قمررر... مرحبا، هل فقدتني؟ بالطبع، ثم حضنتها. سمعت الأخبار فجأت لأودعها وما بيدي حيلة، ومن قال لكي، هل علمتنا الحديقة الإستسلام ؟ هل علمتنا الخسارة؟ كلا، اذا قفي واصبري علّ الله يحميها. أمانا شهر قبل قدوم المسؤولين فعلينا أن نجدها لتبرق نجمة الأمل في جو سماء الليل المعتم. بدأنا يريها بعدما قتلها العطش، وبأشرنا بزراعة النباتات ليز هو الأخضر من جديد. وفي نهاية الشهر غدت الحديقة وكأنها جنة غناء، هوائها يشفي العليل وجمالها ينعش المعافي، فما بالك والعصافير والفرشات التي ملأت الجو بألوان تجعل الناظر يغوص في اعماقها فقد وجدتها ملادا أمانا، والورود التي أزهرت، فزدان لونها وتلاأت.

وبعد مرور الوقت المحدد، حضر المسؤولون ولأول نظرة شعرت وكأنهم صلبون ، احمرار الوجه ، التعب... و بدأوا بإخلاء الحديقة دون مبالاة لأراء غيرهم ، حيث أنهم يشتمون الناس وينعتوننا بالسفهاء، ويقول بعضهم للآخر : وكأنني أقتل بشري! ماذا سيستفدون منها؟ أثار ذلك غضبي، واشتعلت نارا، وصببت كل غضبي عليهم. ولما رأونا نرهم بمنظرات السخط والإشمزاز من فاحش صنيعهم، زاد ذلك حماسهم، فهم حقا لا يهتمون، قتل الطبيعة، فإنها لشيء بسيط لديهم. ثم هرعنا لنسد الطريق ونحن نضحك ونستيق ردة فعلهم، وكما قيل من جد وجد ومن زرع حصد. وقد حان وقت الدخول، إلا أنهم صدموا بما شاهدوا فهم لم يصدقوا أعينهم و بدأوا يتحاورون فيما بينهم، "أهذه نفسها على الصورة؟" ثم أبى كل واحد فيهم من لمس شجرة واحدة، فمن ذلك الشرير الذي سيقبل ان تنمر حديقة خلافة كهذه؟

وبعد دقائق حدثت مفاجأة غير متوقعة عندما بدأت السماء تغطيها سحب داكنة، حيث انقلب الجو المشمس الى غائم ومظلم، وبدأت الأمطار بالهطول كأنها رماح حادة، اضطررنا الى البحث عن مأوى سريع، وبينما نحن في طريقنا لاحظنا شيئا يتلألأ في السماء المظلمة. يتضح أنها عروض لأمعة، حيث تحولت الحديقة الى مكان سحري مضاء بألوان قوس قزح. ومن خلال هذا نعرف ان بعد الكل المصاعب التي سنمر بها يبقى هناك شعلة مضيئة ستومض حياتك الى ان تتغير. وليكن في الحساب ان ما تخفيه في قلبك يعلمه الله، وما صبرت من اجله سيكافئك الله به، اطمئن دائما، وتذكر ان كل ندبة في قلبك سيداويها لك وكل حزن في روحك سيجبره، وكل هم سيفرجه، وكل خيبة أمل حطمت نفسك سيعوضك الله عنها... ولنختم هذه الرواية، تذكر دائما انك عندما تسعى الى ان تحقق مبتغاك اعلم انك ستواجه مصاعب عدة ستعيق مسيرتك وتدمر آمالك، واعلم انك اذا أحببت شيئا سيدوم مهما مرت عليه السنين. ويكمن سر الحديقة الخفية في تلك النافورة التي حققت أمانا من عرف بوجودها. أو من حقا بالمعجزات.